

**مقال: الصداقة بين ابن حزم ومونتاني**

**المصدر:** مجلة البحرين الثقافية

**بقلم:** مصطفى الحسناوي

**رقم العدد:** 33

**تاريخ الإصدار:** 1 أكتوبر 2002

إعداد: موقع الشيخ عبد الحق التركماني

<https://www.turkmani.com>



## الصدقة بين ابن حزم ومونتاني



[ مصطفى الحسناوي ]

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

المتأمل في مسألة الصداقة في الثقافة العربية لا يكاد يعثر سوى على شذرات وفقرات وأبيات شعرية وبضعة فصول متفرقة خصصها بها كتاب ومفكرون وشعراء بشكل متفاوت كالجاحظ والمتنبي وابن حزم وابن المقفع وخصوصاً أبو حيان التوحيدي الذي خصّها بكتاب قائم بذاته عنوانه: (في الصداقة والصديق) وبفصل من (المقابسات) وذلك بخلاف الثقافة والمتمن الميتافيزيقي الفلسفي الغربيين حيث اتسمت مسألة الصداقة كخط إشكالي مفاهيمي بدءاً من أفلاطون وأرسطو (محاورة منهما مع الأخلاق إلى نيكوماخوس) وحتى بلانشو وماسكو لو وديريدا مروراً بيسرون وبيترازي مونتاني والقديس أوغسطين وغيرهم. انطرحت الصداقة في الثقافة الغربية منذ اللحظة الإغريقية باعتبارها جزءاً من جمالية الوجود، من الانشغال بالذات، والاضطلاع بها في علاقتها المتكافئة مع الآخر في مختلف أبعادها السياسية والاجتماعية والفلسفية أيضاً باعتبارها صداقة للحكمة أي صداقة للمفاهيم والأفكار التي تنتج معرفة بالوجود الإنساني وتضيئه.

تحديد الصداقة والحدود: كما نعلم، تعريفات (حدّ الصداقة الذي يدور على طرفي محدودة هو أن يكون المرء يسوؤه ما أساء الآخر ويسره ما سره. فما سفل عن هذا فليس صديقاً ومن حمل هذه الصفة فهو صديق) (1). الصداقة عند ابن حزم اقتسام لمعطيات الوجود وأشياءه واشتراك في الفرح والحزن، أي شيء ما كإلزام إتيكي يمنح مسؤوليتي تجاه الآخر الأولوية على مسؤوليتي تجاه الذات. طابع المشاركة والاقتراس هذا هو الذي يحدد الصديق، كما أن غيابها (الطابع) يشير أيضاً إلى غيابها (الصديق) واستحالتها. يتعلق الأمر هنا بنوع من الصداقة الجوانية التي يتوحد فيها الطرفان على المستوى النفسي والشعوري بحيث تصير ردود أفعالهما اتجاه ما يحدث متماثلة وموحدة. مسألة المماثلة الكلية هذه، باعتبارها الأساس الذي تنهض عليه الصداقة تلغيها لدى الكثيرين ومن بينهم التوحيدي الذي يقول معرّف الصديق بأنه (آخر هو أنت).

إن لم تكن المشاركة والاقتراس مبرراً لصداقة فلا ضرورة لوجود الصديق، بل إنها ما يحدد الصداقة النموذجية، تلك التي تكون حسب موتناني دفناً عاماً وكونياً، معتدلاً رغم ذلك ومتساوياً بين الطرفين، دفناً دائماً لا شدة فيه وأنها (أي الصداقة) لا يتمتع بها المرء إلا في الإطار الذي تكون مرغوبة فيه ولا تسمو، تتغدى وتنمو إلا عبر اللذة باعتبارها لذة روحية، كما أن الروح تصل، عبر ذلك، درجة الرقي (2). الملاحظ أن أغلب من كتبوا في الصداقة وفكروا فيها انشغلوا أساساً بتحديداتها وطرح شروطها وأنواعها والتزاماتها ومن ضمنهم سيسرون في كتابه De Amicitia وهو محاوره تتناول كنموذج لها الصداقة الشهيرة بين سيسيون وليليوس، شبيهة بمحاوره ysis عند أفلاطون وكتاب أرسطو (الأخلاق إلى نيكوماخوس) وهما نصان تأسيسيان في ما يعني إشكالية الصداقة. ليس هناك من صديق بدون محك النموذجية مئمه هذا.

تمتاز هذه النموذجية من أعماق اقتصاد الهبة الملغز

الصداقة كانت جزءاً أساسياً من نظام العلاقات والقيم الذي أسسته المدينة الإغريقية لذا انطرح بقوة فيما بعد كموضوع للتفكير وكإشكالية فلسفية. لكن بم يمكن تفسير ندرة التأمل الفكري والأدبي لهذه الإشكالية في الثقافة العربية؟ لربما احتاجت الإجابة عن سؤال كهذا إلى دراسات تاريخية وتحليلات أنثروبولوجية وسياسية مستفيضة في البنى الاجتماعية والذهنية في مختلف تجلياتها الواعية واللاواعية وإلى الوقوف عند مسألة غياب الذات كقيمة اجتماعية وفكرية وسياسية وغياب إمكانية الانشغال بها بالإضافة إلى هيمنة التأويل اللاهوتي على التجسيد المدني وهو ما أدى إلى إغراق الفضائل المدنية تحت أرتال الفضائل الدينية، وأيضاً إلى أن الثقافة العربية لم تعرف ميلاداً للفلسفة كمحبة للحكمة من قلب المدينة بكل تجلياتها السياسية، الديموقراطية والمدنية كواقع علائقي مؤسسة على التساوي بين المواطنين وكتلاقح بين السياسي والفلسفي والفني، هذا بالإضافة إلى انبناء المدينة العربية على أساس لاهوتي توحيدي بخلاف المدينة الإغريقية التي انبنت حول الأغورا - Lagoro وتفرعت عنها، الأغورا بكل زخمها الدلالي المدني والسياسي ووظائفها المتعددة التي لعبتها في الحياة العامة، يضاف إلى ذلك إعطاء الإسلام الأولوية لمسألة العبودية لله وللأخوة الدينية أكثر من أي علاقة أخرى مما ترك الصداقة، باعتبارها نوعاً من العلاقة المدنية، في الهامش (البحث في صورة الأخ في الثقافة العربية - الإسلامية بمختلف تجسيدات اللاهوتية والاجتماعية والسياسية ما يزال مطروحاً وإنجازته وخصوصاً انطلاقاً من صورته السياسية الحديثة التي جسدها مثلاً تنظيم «الإخوان المسلمين»).

في كتابه (في الأخلاق والسير) وهو نوع من الكتابة الترسلية ذات البعد الوعظي والأخلاقي وبالضبط في فصل (في الإخوان والصداقة والنصيحة) يقول ابن حزم في

(الصدقة) متعلق بتاريخ العنف، سؤال مسلح، تسكنه الكارثة وانعدام اليقين وفي قلب كل شهادة على حضور صديق ووجوده تكمن شهادة. يضرب مونتاني المثال بالصدقة بين غراشوس وبلوسوس اللذين أدبنا وحكم عليهما من طرف القناصل الرومان حيث أجاب بلوسوس بأنه لو طلب منه غراشوس صديقه حرق المعابد الرومانية لحرقتها لأنهما كانا صديقين أكثر مما هما مواطنان وأكثر مما هما عدوان لبلدهما ولو أن أجوبتها وأفعالهما تناقضت لما حمل أي منهما صفة صديق. هذا النوع من الصدقة الذي فيه تتوحد إرادة الصديقين وروحهما بالشكل الذي يمكن فيه للمرء أن ينذر نفسه لصدقة أكثر مما ينذرنا لنفسه يظل نادراً. هذا التحديد الضروري هو شرط إمكانية الصدقة وجماعة الأصدقاء، ثم إنه لا يجب أن يكون لنا أصدقاء كثيرون نظراً لأن الزمن اللازم لوضع كل منهم في محك التجربة يستحيل على المرء توفيره في حياته. ذاك ما يؤكد أرسطو حين يرى بأن الصدقة الأولى لا توجد بين أشخاص عديدين، إذ من الصعوبة بمكان وضع أشخاص عديدين في محك التجربة، ولا يجب اختيار صديق كما نختار ثوباً نلبسه. لا وجود لصديق بدون اختبار ولا لصديق يوم واحد، إذ يلزم ما يكفي من الوقت لكي تتبلور صدقة ما بشكل فعال.

لا يمكن وضع الصداقات العامة الأخرى على نفس الدرجة، إذ يجب التعامل معها بحذر لأن الرابط فيها ليس محكماً إلى الحد الذي لا يمكن معه فكه. الصدقة التي يشير إليها ابن حزم ومونتاني كل على حدة، هي الصدقة النموذجية والسيدة التي تتجاوز بكثير ما هو عادي. إن الوحدة الكاملة والحقيقية التي تكون بين الأصدقاء تدفعهم إلى كراهية كل الكلمات الدالة على الفرقة والخلاف والشقاق وإغائتها وتجاهل الواجبات كالاقرار بالجميل والرجاء والشكر وماشابهها.

الصدقة الأولى: (تلك التي تسمح بتسمية كل

الذي يجعل الموهوب له هو الواهب ويضع الصدقة خارج منطق التبادل وقيمتها. الصدقة السيدة عند مونتاني والنموذجية كثيراً ما تكتسي طابعاً استثنائياً، وهي الصدقة التي نرنو إليها دون بلوغها تماماً كما لا يبلغ أبدا الندرة المطلقة للأصدقاء. يميز مونتاني ما نسميه عادة أصدقاء وصداقات والذي لا يكون سوى مجموعة توافقات وملاءمات تسهم في إيجادها الصدف وتبلورها اعتبارات وظروف محددة بينما الصدقة التي يروم الحديث عنها تشكل مزيجاً كونياً يوجد بين الطرفين حتى لا يكاد المرء يعثر على الخيط الراتق بينهما ويقصد بالذات صداقته مع دولا بويسي de Lo Boesie صاحب (العبودية الإرادية): (إذا تم الإلحاح عليّ لقول لِمَ أحبته فإني أحس بأنه أمر لا يمكن التعبير عنه إلا بالجواب التالي: «لأنه هو ولأنني أنا» (3). ويفسر ذلك أيضاً بكونه قوة غير قابلة للتفسير، قوة مصيرية وحاسمة وتلعب دور الوسيط في الاتحاد بين الطرفين. إن محك الصدقة عند ابن حزم هو ما يتوحد فيه نظام النوايا والأفكار مع نظام الأفعال، لذا فإن (أقصى غايات الصدقة التي لا مزيد عليها من شاركك بنفسه وماله لغير علة توجب ذلك، وأترك على من سواك. ولو أنني شاهدت مظفراً ومباركاً صاحبي بلنسية، لقدرت أن هذا الخلق معدوم في زماننا) (4). تحضر الصدقة مرة أخرى وإثر كلمة أرسطو التأسيسية: (أه أيها الأصدقاء، لم يعد هناك من صديق) موشومة بمنطق الاستثناء والندرة، لأن نماذج الأصدقاء المنذور بعضهم للبعض الآخر نادرة، ولأن الصدقة محكومة بالندرة فإن أغلب الكتابات عنها لا تكاد تفلت من ضرب الأمثلة. يجب أن نستحضر دوماً بأن إعلان الصدقة لا يتم إلا انطلاقاً من جملة تذكرنا دوماً بعدم وجود الأصدقاء وهو ما يحد حتماً من فعالية إعلان الصدقة ويجعل النداء متعدداً لأنه ينادي على المتعدد (أيها الأصدقاء). الصدقة خطاب تهدده الأنقاض دوماً، خطاب منذور للحداد والغياب. إن تاريخ السؤال

من ضمن المزايا التي تميز الصداقة التي يرصدها كل من ابن حزم ومونتاني مسألة البوح بالسر للصديق، لأن السر الذي لا يمكن أبداً البوح به لأي كان بالإمكان البوح به دون كبير عناء أو إحساس باللوم لمن لا يمكن اعتباره آخر، لأنه أنا أي الصديق. (يمكن للأصدقاء بل يتوجب عليهم أن يخفوا عن بعضهم البعض أسراراً لكن الواحد منهم لا يكون سراً بالنسبة للآخر) كما يقول غوته.

الأصدقاء، حسب غوته، ليسوا ملزمين بقول كل شيء بعضهم لبعض، لكنهم حين يتكلمون في ما بينهم يلفون أنفسهم ملزمين بقول كل شيء. بالإمكان أن يخفي الصديق بعض الأشياء عن صديقه، لا أن يخفي عنه ذاته. إخفاء بعض الأسرار لا يضر أبداً بالصداقة ولا يحد من فعاليتها، لأن ما يخفيه أحدهما عن الآخر هو ما لاشأن للصداقة به وما قد يقودها إلى الانحفاء والتلاشي إذا ما قيل. لا علاقة للصداقة بالفضول والشأن الوحيد الذي به تتعلق هو ترك الآخر - الصديق يكون في كلية وجوده كصديق. ثم إن السر لا يتحقق دوماً في ماهيته كسر، إذ هناك أسرار غير أساسية تكشف الصداقة زيفها. ما يعلن كسر لا يكون بالضرورة المجهول والغريب بل المؤلف. قد تمتلك الأساسي والجوهري في الصديق، الاعتراف بسر من حيث هو سر لأننا بالذات نعرف كل ما بإمكاننا معرفته عن الصديق. ما ينبج في عمق الصداقة هو عمق منبع ثر يظل محجوباً رغم ذلك عن الرؤية ولانسمع منه سوى هسيسه البعيد الأقرب إلينا بالرغم من ذلك من المياه الممنوحة لنظرتنا.

ما فتىء سيسرون يكرر بأن الصداقة لا يمكن أن توجد إلا بين رجال الخير. العقل والفضيلة لا يمكن أن يكونا خاصين بل متوافقان سلفاً مع الفضاء السياسي العام. لذا فإن نماذج الأصدقاء التي يطرحها - سواء - سيسرون أو مونتاني ينبغي أن تكون متوافقة. والسر لا يمكن داخل الصداقة أن يفرق بين تجربتي الصديقين. لكن مونتاني

الصداقات الأخرى). وكما يرى أرسطو لا تترك مجالاً لهذا النوع من المشاعر التي يحكمها اقتصاد التبادل. حين يتماهى الصديقان لا يستطيع أحدهما فرض شيء أو هبه لأن كلا منهما يصير في أن الواهب والموهوب: (لا تكلف صديقك إلا ما تبذل له من نفسك فإن طلبت أكثر فأنت ظالم. لا تكسب إلا على شرط العقد، ولا تتول إلا على شرط العزل، وإلا فإنك مضر بنفسك، خبيث السريرة.. فالصداقة تقتضي للآخر وتوجب عليه أن يؤثر نفسه في ذلك فإن لم يفعل فهو متغنى مستكثر، لا ينبغي أن يسامح البتة، إذ ليس صديقاً ولا أحاً. فأما إذا استوت حاجتهما واتفقت ضرورتهما، فحق الصداقة ها هنا أن يسارع كل واحد إلى الأثرة على نفسه، فإن فعلاً ذلك فهما صديقان، وإن بادر أحدهما إلى ذلك ولم يبادر الآخر إليه، وكانت هذه عادة الآخر فليس صديقاً ولا ينبغي أن يعامل معاملة الصداقة، وإن كان قديباً هو أيضاً إلى مثل ذلك في قضية أخرى فهما صديقان (5). من لم يختبر محك هذه الأثرة لا يستطيع الاضطلاع بالصداقة. الأسرار وسيئو النية الميالون إلى الإيذاء ليسوا أبداً أصدقاء ولا يعرفون الإثرة والقسمة اللذين يحكمان جماعة الأصدقاء لأنهم يفضلون الأشياء على الأصدقاء. لربما كان الأصدقاء، أصدقاء حقيقيتي التي أجهلها، لتتكشف أمامي تلك الصيرورة التي لا مناص منها، صيرورة الإنسان هبة توجهها وتلهمها الصداقة الواهبة ويحكمها حضور الآخر - الصديق، الآخر كمسؤولية، كهبة وكسؤال. الصداقة عند ابن حزم، فعل يقتضي فاعلين، والصداقة السيدة غير قابلة للاقتسام لأن كل صديق ينمى كلية لصديقه، ولأن الموهوب له لا الواهب هو الذي يلزم الآخر. الصداقات العامة والعادية يمكن اقتسامها والاكتفاء بأجزاء منها إلا الصداقة السيدة فإنها تملك الروح وتديرها بسيادة ومن المستحيل أن تجزأ بل تظل العلاقة الحميمية التي تستنفذ الصديقين كلية وخارجها لا يستطيعان بذل أي مجهود.

الذاتية في هذا المجال فإنهما يختلفان من حيث المرجعية أو الإطار الذهني - الفكري الذي ينتظمه ما هو ديني ولا هوتي عند ابن حزم وينتظمه ما هو فلسفي وأدبي نوعاً ما عند مونتاني (لابويسسي، هوراس، فيرجيل، تيرونس، أرسطو، بلوتارك، ديوجين، سيسرون وغيرهم...). وهذه الوفرة الخطابية حول إشكالية الصداقة تشير إلى أن محاولته تتموضع ضمن التاريخ الخاص لمبحث فلسفي قائم بذاته ومستقل معرفياً، بينما يظل المفهوم عند ابن حزم تابعاً لمرجعية لاهوتية تنتظمه وغير قابل للتأويل في ذاته، لذا يظل بعيداً عن موضعة الصداقة ضمن نمذجة عملية لأنماط الوجود. إن الأخلاق المتعالية وثيقة الصلة بحكم الإله وبنظام حكم ينهض على أساس التعارض الكائن بين قيم مجردة كالخير والشر مثلاً، إن إحالة هذه المنظومة الأخلاقية المتعالية على وهم القيم يتماهي وهم الوعي ومن هنا تركيز ابن حزم على منطلق في الكتابة وعظمي وقيمي وعلى أولوية الواجب الأخلاقي وهو التركيز الذي يقوم على نسيان الاختلاف الطبيعي بين المعرفة والأخلاق وعلى خلق نوع من الالتباس بينهما. وبالرغم من ندرة المكتوب في المتن العربي فمن الضروري والواجب التفكير في الصداقة والكتابة عنها بشكل خاص ضد العدد الأكبر، ضد الكثيرين ممن يصنعون اللغة ويقنونون طرق استعمالها، وضد اللغة والخطاب السائدين اللذين يهيمنان على الفضاء العام (...). وسيكون سعيداً من يلتقي في أفق هذا الوعد ولو بظل صديق. ■

#### هوامش

- (1) ابن حزم، وكتاب الأخلاق والسير، اللجنة الدولية لترجمة الروائع، بيروت، 1961، P. 39.
- (2) in Essais, Livre premier Garnies - Flammarion 1969, p.233. Montaigne, Delamitie
- (3) Ibiat, p. 236.
- (4) ان حزم، مرجع مذكور ص 39.
- (5) المصدر نفسه 42-43.

يظل يحلم بسر مشروط، لا سياسي أو مخترق للسياسة، سر لا علاقة له بالفضاء السياسي العام، محلقة ما فوق قوانين المدينة. لا مماثلة إذن بين قانون السر وقوانين المدينة لأنهما التزامان ومسؤوليتان مختلفتان. من الضروري في هذا السياق الاختيار بين السر المتعلق بصداقة استثنائية والسر السياسي.

إن الصداقة الفريدة والأساس عند مونتاني يَجِبُ كل واجب آخر، وفي هذا السياق فإن السر الذي أقسمت بأن لا أبوح به لآخر يمكن بكل بساطة البوح به لمن ليس آخر، لأنه أنا أي صديق - السر، إذن هو خط القسمة بين الخاص والعام. إن الصداقة التي تفترض التماهي المطلق هي الأندر الذي يمكن العثور عليه في العالم. الملاحظ أن ابن حزم يُخضع الصداقة لمنظور أخلاقي ديني فهو لا يعني بالأصدقاء سوى إخوان الصفاء لغير معنى إلا لله، كما يقول، بالإضافة إلى ربطها بالنصيحة، بالمعنى الديني كفرض وديانة وكتنبيه وتذكير وتوبيخ وتقريع، فضلاً عن إخضاعها لقيم متعالية أخلاقية كالخير والشر. إنه صداقة تلتبس نوعاً ما بعلاقة الأخوة الدينية وترتبط بالواجب الديني أكثر مما تنطرح كفضيلة مدنية خصوصاً وأن المعجم الديني الإسلامي يتحدث أصلاً عن علاقة المؤمن بأخيه المؤمن لا عن علاقة الصديق بصديقه وهي العلاقة المدنية التي تظل الغائب الأكبر. أغلب الخطابات الفلسفية الكبرى ربطت مسألة الصداقة بوضوح بالعدالة وبالعدل والسياسة والديموقراطية وهي عناصر نعلم بأنها شبيهة بنقاط عمياء في خطابنا وممارساتنا سواء التاريخية أو المتعلقة بالهنا والآن.

يربط مونتاني الصداقة من جهته بمنظور «أخلاق عملية» أي المنظور الإتيكي المحض الذي لا علاقة لها بالقيم المتعالية، وحتى الصداقة السيدة والنموذجية لديه ينتظمها المنظور العملي ذاته. وبالرغم من أن ابن حزم ومونتاني ينطلقان من خلاصات التجارب الشخصية